جوهر الحضارة الإسلامية وتجلياتها
قراءة في كتاب "أطلس الحضارة الإسلامية"
تأليف: إسماعيل راجي الفاروقي ولوس لمياء الفاروقي*

فتحي حسن ملكاوي**

مقدمة:

لا يراودُ القارئَ شكٌّ في أنَّ دينَ الإسلام، هو جوهرُ الحضارة الإسلامية، وأنَّ التوحيدَ هو جوهرُ هذا الدين؛ إذ لم تصطبغ أية حضارة في القديم والحديث بطابع ديني كما حصل ذلك في الحضارة الإسلامية. ولعلَّ خصائصَ هذا الدين الذي يجعلُ حياةَ الإنسان في الدنيا خلافةً في الأرض، وحملاً للأمانة الربانية، جعلت بناء الحضارة في أشكالها المعنوية والمادية عملاً دينياً، لا يقل أهمية عن التوجُّه إلى الخالق بالشعائر العبادية الخالصة، من صلاة وصيام وحج. كما أنَّ التوحيد الخالص في دين الإسلام جعل الإنسان المسلم يسعى جاهداً للتحقق بالإيمان بالله وطاعة أوامره والرجاء في ثوابه وهو يمارس الإنتاج الزراعي، والتطوير الصناعي، والإبداع الفني، والتشييد العمراني، والتخطيط المدني، والتنظيم الاجتماعي، حتى يصحَّ القول: إنَّ تجليات التوحيد تصبغ الحضارة الإسلامية في سائر منجزاتها.

كيف يمكن أن يتحقق لنا ذلك القدر من اليقين في أن إحسان العمل في شؤون الدنيا فيما تتقوَّم به الحياة وتترقّى أسبابُها، وتزدهر به الحضارة في مجالاتها المادية والمعنوية، هو شأن ديني، يفرضه الإيمان، ويتوجَّه به أصحابُه إلى الله سبحانه لنيل الدرجات العلى من ثواب الآخرة ونعيمها؟

---

* الفاروقي، إسماعيل راجي، والفاروقي لوس لمياء. **أطلس الحضارة الإسلامية**، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، هيرندن–الرياض: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ومكتبة العبيكان، ١٩٩٨م. (٧٤٠ صفحة)

** المدير الإقليمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي/الأردن، ورئيس تحرير مجلة إسلامية المعرفة. البريد الإلكتروني: fathihmalkawi@gmail.com

تم تسلّم القراءة بتاريخ ٢٠١٣/٦/١٥م، وقُبلت للنشر بتاريخ ٢٠١٣/٨/٢٥م.

أجل! إنَّ القرآن الكريم سبيل لتحقيق ذلك اليقين، لكن القرآن الكريم لم ينكر على الإنسان رغبته في الاستئناس بالخبرة التاريخية، وحاجته إلى الملاحظة الحسية، وسعيه للاستدلال بالمشاهدات المادية، لتعزيز إيمانه بما يهدي إليه القرآن الكريم. ولعل القراءة المتأنية للكتاب، الذي نحن بصدد الحديث عنه، تكشف عن الإبداع الذي حققه المؤلفان في تحليل النصوص التاريخية والشواهد المادية للوصول إلى أنَّ التوحيد هو جوهر الحضارة الإسلامية. وبهذه القراءة المتأنية يتحقق ذلك اليقين لغير المسلم بالاستناد إلى فاعلية المنهج الذي يستخدمه المؤلفان، وقوة الحجج التي يقدمانها، كما يتحقق ذلك للمسلم الذي يجد فيما يقرأه في الكتاب تجليات لإيمان المؤلفيْن ويقينهما الديني، الذي يتعاضد من خبرتهما وكفاءتهما العلمية.

الكتاب الذي نحن بصده "أطلس الحضارة الإسلامية" هو الترجمة العربية للنسخة الأصلية من الكتاب بعنوان: The Atlas of Islamic Civilization الصادر بالإنجليزية عن دار النشر الدولية MCMILLAN في لندن عام ١٩٨٦ في ٦٠٠ صفحة من القطع الكبير، بعد استشهاد المؤلفين في منزلهما بفترة قصيرة. ترجم الكتاب إلى ست لغات: الماليزية، والإندونيسية، والتركية، والإسبانية، والبرتغالية، والفارسية، قبل أن يُترجم إلى العربية.

مؤلفا الكتاب إسماعيل راجي الفاروقي، وزوجته لوس لمياء الفاروقي. ولد إسماعيل إسماعيل الفاروقي في فلسطين، وتخصص في الدراسات الفلسفية، ودرس العلوم الإسلامية وتاريخ الأديان، وأحاط بتاريخ الشعوب وأديانها وحضاراتها، وعمل أستاذاً في عدد من الجامعات الكبرى في الولايات المتحدة وكندا، وتجول في بلدان العالم الإسلامي، وعمل أستاذا زائراً في كثير من جامعاتها، ونشر حوالي خمسة وعشرين كتاباً وأكثر من مائة بحث، وشارك في تأليف "الأطلس التاريخي لأديان العالم" وموسوعة "الديانات الأسيوية الكبرى" وكان آخر ما دفع به إلى الطباعة في حياته هذا المجلد الضخم "أطلس الحضارة الإسلامية".

أما المؤلفة المشاركة في تأليف هذا الأطلس، فهي زوجة الدكتور إسماعيل الفاروقي، الدكتورة "لوس لمياء الفاروقي" المتخصصة في الدراسات الإسلامية والخبيرة بالفنون الإسلامية والموسيقى. وقد مارست التدريس والبحث والتأليف في مصطلحات الموسيقى العربية والفنون الإسلامية، وتاريخ الموسيقى. وقد جرى اغتيال المؤلفان في منزلهما في جامعة تمبّل في ولاية بنسلفانيا الأمريكية في ظروف غامضة، نسأل الله لهما الرحمة والمغفرة، وذلك في شهر رمضان ١٤٠٦هـ (مايو ١٩٨٦م).

والقراءة المتأنية للكتاب، والألفة بالكتابات الأخرى للمؤلفيْن، تبين أن محتوى الكتاب يمثل خلاصة الخبرة العلمية والبحثية للمولفين، فقد ظهرت معظم الموضوعات الواردة في الكتاب في البحوث المنشورة سابقاً لهما بصورة أكثر عمقاً وتفصيلاً. ولكنها تَرِد هنا ضمن بنية متكاملة تكاد تحيط بموضوعات الحضارة الإسلامية، وأعلامها، ومدوناتها، وتجلياتها؛ مما يسوغ وجود كلمة أطلس في عنوان الكتاب. وقد شاء الله سبحانه أن يكون هذا الكتاب هو آخر ما يدفعان به إلى الطباعة، قبل أن يلتحقا معاً بالرفيق الأعلى.

والجدير بالذكر أن المترجم (وهو يفضل مصطلح الناقل بديلاً عن المترجم) هو الدكتور عبد الواحد لؤلؤة أستاذ الأدب الإنجليزي في العراق، وهو أديب ومترجم مشهود له بالكفاءة، وقد نوَّه في مقدمة الناقل بالمساعدة التي قدمتها زوجته مريم في ضبط العبارة العربية، وبالتقويم والتشذيب الذي قام به زميله وصديقه الدكتور رياض نور الله في مراجعة الترجمة.

وقد تعاون المعهد العالمي للفكر الإسلامي ومكتبة العبيكان في الرياض على القيام بمهمة الترجمة والنشر.

البنية الكُلية للكتاب

تقع الترجمة العربية للكتاب في سبعمائة وأربعين صفحة من القطع الكبير. وقسمت مادة الكتاب إلى أربعة أقسام غير المقدمات والملاحق. تضمّ الأقسام الثلاثة الأولى ثمانية

فصول، بينما يضم القسم الرابع خمسة عشر فصلاً، مشكلاً بذلك حوالي ٦٣% من مجموع صفحات فصول الكتاب. وفضلاً عن أقسام الكتاب وفصوله وملاحقه فإن للكتاب ثلاث مقدمات: الأولى مقدمة الطبعة العربية أعدها الدكتور هشام الطالب نائب رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وفيها تعريف بالكتاب وبمؤلفَيْه، ومقدمة للمترجم أوضح فيها بعض عناصر منهجيته في الترجمة، ومقدمة المؤلفيْن.

وكما هو متوقع من مقدمة أيِّ كتاب، فإنَّ المؤلفين أوضحا الفكرة الأساسية من الكتاب، وسبب إعطائه هذا العنوان "أطلس الحضارة الإسلامية"، والمنهجية التي اتبعاها، ونوعية الكتابات التي تعرضت لموضوع هذا الكتاب، وما امتاز به في منهجيته وموضوعاته عن الكتابات الأخرى، وتوزيع موضوعات الكتاب على أبوابه وفصوله.

يلاحظ أن الكتاب في طبعته الإنجليزية جعل عنوان القسم الأول في متن الكتاب بعنوان "السياق"، بينما كان عنوان القسم في قائمة المحتويات كلمة "origin" التي تعني "الأصل" أو "المنشأ" أو "الابتداء". وتبدو هذه الكلمة على علاقة لصيقة بعنوان الكتاب "أطلس الحضارة الإسلامية" بمثل اتصال الأصل بما ينتج عنه، والبدء بما ينتهي إليه، فأصل الحضارة الإسلامية، ومنشأ تشكُّلِها، وبدء انشارها، كان في جزيرة العرب من حيث المكان، وهذا هو عنوان الفصل الأول من القسم، وكانت اللغة والتاريخ (وهذا هو عنوان الفصل الثاني) الأصل الذي يعبر عن دور الشعوب والأقوام الذين سكنوا ذلك المكان وما حوله، و"الزمن" الذي حدث فيه التطور التاريخي لتشكل هذه الشعوب وتطور لغاتها، فيكون العامل البشري والعامل الزمني أصلين مناسبين لفهم الصورة التي كانت عليها الأمور يوم جاء الدين الجديد. وبذلك تتهيأ الأذهان للحديث عن الدين والثقافة التي بناها هذا الدين فخرج من محددات المكان والزمان والأقوام، لذلك كان عنوان الفصل الثالث "الدين والثقافة". وبذلك يكون موضوع هذا القسم بفصوله الثلاثة أصلاً للحضارة الإسلامية، وإن كانت عناصر المكان والزمان والأقوام والدين والثقافة هي السياق العام الذي نشأت فيه الحضارة الإسلامية.

أما القسم الرابع والأخير فجاء بعنوان "التجليات". ومن النظر في عناوين الفصول الخمسة عشر لهذا القسم، فإنه يسهل تصنيفها في ثلاث مجموعات في كل منها خمسة فصول. وقد جاء ترتيبها ترتيباً منطقياً يتسق مع ترتيب الكتاب في مجمله؛ فالمجموعة الأولى تتحدث عن العلوم التي أنشاها الإسلام ودارت حول أصوله التأسيسية (القرآن والسنة). والمجموعة الثانية تتحدث عن الفكر الذي صاغة العقل المسلم نتيجة تفاعله مع علوم الملّة وعلوم الملل والجماعات الثقافية والحضارية الأخرى إضافة إلى علوم الطبيعة. أما المجموعة الثالثة من فصول القسم الرابع فتولّت عرض صور التعبير عن الحضارة الإسلامية بفنون الأدب والخط والمكان والصوت وجمالياتها.

يمتاز الكتاب باحتوائه على أكثر من تسعين خارطة، تدعم مادة الكتاب بمخططات ورسوم وصور توضح توزع الأقوام والشعوب والأديان واللغات وحدود الدول والمنجزات العلمية والفنية والعمرانية. ويوضح المؤلفان موقع هذه الخرائط وصلتها بعنوان الكتاب "أطلس الحضارة الإسلامية"؛ ذلك أن كلمة "أطلس" في العنوان يمكن أن تشير إلى كتاب خرائط، والخرائط عادة توضّح خصائص جغرافية ذات صفات طبيعية أو زراعية أو حضرية أو سياسية أو اقتصادية أو عسكرية... أما هذا الكتاب فيقع ضمن حقل "الجغرافية الثقافية"، وهو حقل لا يزال في حداثته... وما يزيد في تدعيم العنوان أن الكتاب ينطوي على بيانات وفيرة حول الثقافة والحضارة في الإسلام، وقد جرى تمثيل هذه البيانات في جداول وخرائط وتواريخ وأرقام وصور.[١]

ولمزيد من تنظيم هذه البيانات التي تتضمنها الخرائط فقد أضاف المؤلفان مسرداً "كشافاً=index" بهذه البيانات، لا سيّما لأسماء الأماكن والأحداث والآلات والخطوط... بالإشارة إلى أرقام الخرائط وليس إلى أرقام الصفحات. أما المسرد العام فهو مسرد تفصيلي غني، جاء في أربعين صفحة، في كلّ صفحة أربعة أعمدة، هذا فضلاً عن قائمة المحتويات التفصيلية التي احتوت على جميع العناوين الرئيسة والفرعية في الكتاب، وجاءت في أربع عشرة صفحة.

[١] الفاروقي، إسماعيل، والفاروقي، لوس. **أطلس الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٢٨

منهج التأليف في الكتاب

لقد أَلِفَ الدارسون لتاريخ المسلمين أن يجدوا منهجين مختلفين في رؤية الوقائع التاريخية؛ الأول هو منهج معظم المؤرخين المسلمين الذين كان يركزون اهتمامهم على الشخصيات السياسية التي تولت الحكم، وعلى الوقائع العسكرية والسياسية، مع إهمال كبير لتاريخ الشعوب والثقافات التي سادت حياة الأمة، والإنجازات الحضارية التي أسهمت في بنائها. أما المنهج الآخر الذي مارسه المستشرقون والمؤرخون الغربيون عموماً فهو التقسيم الجغرافي أو التقسيم العرقي للأمة، والتأريخ لكل منطقة جغرافية، أو عرق، أو شعب. فجاء الفاروقيان لينهجا منهجاً آخر، يعطي الأولوية للأمة في مجموعها، وللإسلام في مجمل عقائده وأنظمته، وللصور التي تمثلت فيها الأمة هذه العقائد والأنظمة وتفاعلت معها، ومن ثم الإنجازات الثقافية والحضارية التي تأسست عليها.

واختار المؤلفان عدداً من العناصر المنهجية التي تميز بها الكتاب، ومن هذه العناصر هو "الطريقة الظاهراتية" التي وضع أساسياتها أدموند هوسيرل، وطور تطبيقاتها ماكس شيلر.[٢] لكن الفاروقيان يؤكدان أن "هذه الأساسيات كانت معروفة لدى العالم المسلم أبي الريحان البيروني (٤٤٠هـ/١٠٤٨م) فطبقها بدقة في كتابه الفذ عن ديانة الهند وثقافتها. وقد واصل المسلمون في تراثهم الطويل مراعاة أسس الطريقة التي وضعها البيروني في دراساتهم وكتاباتهم المقارنة."[٣] ومن هذه العناصر المنهجية كذلك التمييز الحاسم بين الإسلام والمسلمين، فمع أن الإسلام دين الله المكتمل في القرآن والسنة، وهو المثل الأعلى الذي يسعى المسلمون إلى معرفته، وتطبيقه، فإن تاريخ المسلمين ليس متماثلاً بالضرورة مع ذلك الدين الكامل، صحيح أن جوهر الإسلام وهو التوحيد كان مصدر التوجيه والدعم للثقافة والحضارة التي أنتجها المسلمون، لكن أي ظاهرة ثقافية أو حضارية، تكون موضوعاً للدارسة، لا بدّ أن تخضع لمعيار التوحيد ومقياسه، لمعرفة مقدار

[٢] إدموند هوسيرل (Edmund Husserl)، (١٨٥٩-١٩٣٨م) فيلسوف ألماني، يُعَدُّ مؤسس المنهج الظاهراتي، وطبقه في دراسته للفلسفة الغربية. أما ماكس شيلر Max Scheller (١٨٧٤-١٩٢٨م) فهو كذلك فيلسوف ألماني، اشتهر بتطويره لأفكار هوسيرل الخاصة بالمنهج الظاهراتي وتطبيقه لهذا المنهج في دراساته للدين والأخلاق والانثروبولوجيا.

[٣] الفاروقي، إسماعيل، والفاروقي، لوس. **أطلس الحضارة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٢٥.

تحققه أو مقاربته أو الخروج عنه. لذلك سعى المؤلفان إلى الربط بين مادة كل فصل من فصول الكتاب وذلك المعيار للحكم على تجليات الحضارة الإسلامية في مجالات الفكر والفعل والتعبير.

وقد كانت الخبرة الغنية التي اكتسبها الفاروقيان من دراستهما المتعمقة، وزياراتهما المتكررة لمعظم البلدان الإسلامية، عنصراً منهجياً ثالثاً، يربط ظواهر التاريخ وأحداثه بالواقع المعاصر واتجاهاته في المستقبل، فقد مكنتهما هذه الخبرة من إدراك طبيعة الأزمات التي تعاني منها الأمة الإسلامية في النصف الثاني من القرن العشرين، فرأيا أنَّ هذه الأزمة ذات جذور تاريخية، تكرست بفعل نظم التعليم السائدة التي فصلت معرفة الأجيال بدينها وثقافتها وحضارتها عن التفاعل مع علوم العصر ومستجداته؛ مما أفقد هذه الأجيال ثقتها بنفسها وقدرتها على الفعل الحضاري المعاصر. فجاء هذا الكتاب لينفخ الروح الحضارية في أبناء الأمة، ويؤكد لها أنها لا تزال تملك جوهر الحضارة التي أنجزتها عبر التاريخ، ويكشف عن قدرتها على استئناف البناء والإنجاز الحضاري.

وجاء الكتاب كذلك إسهاماً فريداً في مواجهة كتابات المستشرقين الذي أسرفوا في محاولاتهم تشويه الحضارة الإسلامية وطمس معالمها. ومن ثم تعريف الأجيال الجديدة من الغربيين بالإسلام وإنجازاته الحضارية وقدراته الكامنة على البقاء والانتشار والإنجاز المتجدد.

السياق الذي نشأت فيه الحضارة الإسلامية

القسم الأول من الكتاب جاء بعنوان السياق. ويقصد به سياق المكان والزمان والإنسان. وتحدث فيه المؤلفان عن بلاد العرب التي كانت المهاد الأول لرسالة الإسلام. فجاء الفصل الأول حديثاً عن القبائل العربية العاربة (قحطان) والمستعربة (عدنان) وتوزعها الجغرافي، وتنقلاتها الداخلية والخارجية، وتفاعلاتها مع الشعوب المجاورة في بلاد ما بين النهرين ووادي النيل، وبلاد الشام، وقد استغرق الفصل الحقبة التاريخية منذ أقدم عصور التاريخ المدون إلى مطلع العهد الإسلامي. وهنا يؤكد المؤلفان، بالاستعانة بفيض

من الأدلة التاريخية والجغرافية والسكانية واللغوية، أن بلاد العرب لا تقتصر على شبه الجزيرة العربية فحسب، وإنما تمتد بلاد العرب لتشمل الجزيرة العربية والمنطقة المعروفة بالهلال الخصيب.

وتناول الفصل الثاني اللغة والتاريخ. ويعتمد المؤلفان على البحوث، والاكتشافات الأثرية، والنصوص التوراتية، والخطوط المصرية القديمة، في التأكيد على أن اللغات التي سادت بلاد العرب كانت تنتمي إلى أرومة واحدة، وبينها من الوشائج الشيء الكثير، ومن بين هذه اللغات الأكادية والبابلية والأشورية، والآرامية (السريانية والماندية والنبطية، والسامرية، والتدمرية وآرامية اليهود) والفنيقية، والكنعانية، وعبرية التوراة، والسبأية والحميرية والأمهرية، وهرارية، إضافة إلى العربية. ويستعرض المؤلفان حركة هذه اللغات وتبادلها المواقع منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، ويؤكدان أن العربية كانت لغة بلاد العرب منذ أكثر من ألف عام قبل الإسلام، وأن الروايات التاريخية التي تتحدث عن أصل العرب ولغتهم –رغم تناقضها– ربما تكون كلها صحيحة؛ لأنَّ كل رواية تتحدث عن قسم من العرب، غير القسم الذي تتحدث عنها الروايات الأخرى. ويتضمن الفصل تفاصيل عن الأقوام والدول التي تعاقبت على المنطقة، والأصوات والخطوط اللغوية التي كانت تتطور لدى سكانها، والعقائد التي كان هؤلاء السكان يؤمنون بها.

ويتحدث الفصل عن أسرة اللغات السامية وخصائصها المشتركة، لا سيما ثلاثية الحروف والطبيعة الصوتية، والصرف، وتعدد المفردات الدالة على الشيء الواحد، وبنية الجملة، والتأثير العاطفي والمغزي الإخلاقي، والذوق الجمالي، وغير ذلك من الخصائص الأدبية شعراً ونثراً. ثم يبدأ بعرض مشاهد الممثلين لتاريخ المنطقة من الأقوام التي يعود بعضها إلى ثلاثين قرناً قبل الميلاد. ومن هؤلاء العموريون، والكنعانيون، والآراميون، والآشوريون، والعبرانيون، والأكديون، وبدلاً من اقتصار الحديث عن كل من هؤلاء الأقوام على الجوانب السياسية والعسكرية، فإن الكتاب يركز على الثقافة والأدب والفن والقانون وأساليب الحياة، وصور التدين التي كانت تسود حياة الناس.

أما الفصل الثالث من هذا القسم فكان بعنوان الدين والحضارة. وجاء فيه استعراض تفصيلي للأديان التي سادت المنطقة منذ أقدم ما سجّله التاريخ البشري، مع التركيز على

اليهودية، والمسيحية، والديانة المكية من عهد إسماعيل عليه السلام حتى رسالة محمد عليه الصلاة والسلام. ومن المناسب التنوية إلى أنَّ إسماعيل الفاروقي كان واحداً من الخبراء القليلين في العالم في مجال تاريخ الأديان، وكتابه الذي حرره بعنوان "الأطلس التاريخي لأديان العالم"[٤] من المراجع المتميزة في موضوعه. وقد قام بوضع خطته واختيار المشاركين في الكتابة فيه، وكتابة خمسة فصول منه، والتحرير العلمي لمادته، مما يشير إلى حجم اهتمامه بالموضوع وخبرته فيه.

أما الطريق التي لجأ إليها المؤلفان في هذا الفصل لعرض كل ديانة هي استخلاص جوهر الدين ومبادئه الأساسية، ووصف تجلياته في رؤية العالم وطريقة الحكم ونظام المجتمع والنصوص المدونة والفنون. ويبدأ الفصل بتحليل نقدي لبعض المقولات التي ينطلق منها المؤرخون في الشك في مصداقية المكتشفات الأثرية ذات العلاقة بالمظاهر والطقوس الدينية، متأثرين في ذلك بالخلفية العلمانية التي لا تضع أي اعتبار للنصوص المقدسة ذات الطابع الأدبي والأسطوري فيما يسمونه الدراسة العقلانية. وفي هذا المجال يرى المؤلفان ضرورة توفّر ثلاثة شروط للفهم الصحيح لأي معتقد: أوّلها أن يتجنب الباحث الحكم على المقولات في ضوء ما يعتقده هو، والثاني الانفتاح العاطفي الذي يجعل المعطيات الدينية لا تكشف عن مكنونها إلا لمستمع متعاطف، والثالث هو الخبرة والألفة السابقة بالمواد الدينية وما يصحبها من مودة من نوع ما تسبغه القيم الدينية على رجال الدين، ولا سيما إذا كانت الخبرة في حدود تراث ديني تتشابه نظرته إلى العالم وأخلاقيته مع ما في تلك المعطيات. ثم يؤكدان "أن الانفتاح أمام الدليل الجديد والتواضع في عرض الفرضيات، والاستقامة الفكرية في استقصاء الدليل يجب أن تميز الجهد العلمي إذا أريد له أن يكون ذا قيمة. ويعادل ذلك في الأهمية، في الدراسات الدينية، كما في أية دراسة أكاديمية أخرى، وجود خيال مبدع، وهو ضرورة مطلقة."[٥]

ومما يلاحظ على منهج المؤلفين في استعراض التاريخ الديني للمنطقة الربط بين المقولات الدينية للديانات المتتابعة، والتأثير والتأثُّر الذي تلقاه الممارسات والطقوس

[4] Al- Faruqi, Ismail Ragi. *Historical Atlas of the Religions of the World*, New York and London: Macmillan Publishing Co., 1974.

[٥] المرجع السابق، ص٩٠.

الدينية بالبيئة السياسية للشعوب والأقوام في المناطق المجاورة. ولا يشير المؤلفان بصورة واضحة إلى تراث النبوات كما وردت في القرآن الكريم في الاستعراض التاريخي للديانات والتحولات التي طرأت عليها، ويكتفيان باعتماد المصادر التاريخية، وما اعتمدت عليه هذه المصادر من حفريات ولُقىً أثرية. ومع ذلك فإن المؤلفين يصححان بعض الأخطاء، التي ربما يبدو المؤلفان في ذلك مخلصين تمام الإخلاص للمنهج الظاهراتي، الذي يدع الأحداث تقول كلمتها كما سجلها التاريخ دون تدخل من الراوي، أو إصدار أحكام بناء على معتقداته. ومع ذلك فإن القارئ لا بد أن يجد ملامح الهوية العربية الإسلامية للدكتور إسماعيل الفاروقي وألفته بالآيات القرانية ذات الصلة بالنص التاريخي التي يورده. وربما يشفع للمؤلفين قلة استشهادهما بالنصوص القرآنية إضافة إلى اعتمادهما المنهج الظاهراتي، أن القصص القرآني مكتف بذاته من حيث حدود المعلومات التي توردها القصة، دون حاجة إلى استكمال عناصرها من مصادر أخرى غير القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وأن هدف القصص القرآني هو التفكر والتدبر والاعتبار، وليس التدوين التاريخي للأحداث وفق تسلسلها واستكمال عناصرها.

التوحيد جوهر الحضارة الإسلامية

عنوان القسم الثاني من الكتاب هو جوهر الحضارة الإسلامية، ويبدأ المؤلف بتقرير مبدأين ليسا موضع شك لمن ينتمي إلى هذه الحضارة أو أسهم فيها بنصيب: الإسلام هو جوهر الحضارة الإسلامية، والتوحيد هو جوهر الإسلام. والتوحيد في الإسلام رؤية متماسكة "إلى الواقع والحقيقة والعالم والزمان والمكان والتاريخ البشري."[٦] وهذه الرؤية تشتمل على عدد من المبادئ منها الثنائية، والإدراكية، والغائية. فالثنائية مبدأ يميز بصورة حاسمة بين الله الخالق والعالم المخلوق، فلا الخالق يتمثل في المخلوق أو يحل فيه أو يتوحد معه، ولا المخلوق يتسامى ليصبح الخالق بأي شكل أو معنى. والإدراكية مبدأ يؤكد أن العلاقة بين الخالق والمخلوق تتصل بقدرة الإنسان على إدراكها وفهمها واستيعابها، بما ملكه الله من الذاكرة والتخيل والتفكير والملاحظة والحدس، سواءً عند التعبير عن هذه

[٦] المرجع السابق، ص١٣١.

العلاقة بوحي الله المنزل إلى الإنسان، أو بقدرة الإنسان على إدراك الإرادة الإلهية من خلال الملاحظة الحسية للمخلوقات والتفكر فيها. أما مبدأ الغائية فيؤكد أن الله سبحانه خلق العالم والإنسان المستخلف فيه لغاية كونية محددة؛ فلا الخلق كان عبثاً، ولا المخلوقات فوضى، فإرادة الله تتحقق في الأشياء والأحداث وفق قوانين وسنن، وإرادة الله تتحقق في الإنسان من خلال حرية الاختيار التي تستبع المسؤولية الأخلاقية عنها.

وللتوحيد بوصفه جوهر الحضارة الإسلامية: جانبان جانب المنهج وجانب المحتوى، فجانب المنهج يشتمل على ثلاثة مبادئ منهجية هي: الوحدة والعقلانية والتسامح، أما جانب المحتوى فيتعلق بالمبادئ نفسها، فالتوحيد أول مبدأ في الفلسفة الماورائية، وفي فلسفة الإخلاق، وفي علم القيم، وفي وحدة الأمة الإسلامية، وفي التجليات الجمالية.

ويلاحظ أن الشرح والتفصيل في مبادئ التوحيد الخاصة بالمنهج أو المحتوى جاءت في هذا القسم من الكتاب بصورة موجزة جداً، ذلك أن تفصيلها كان في كتاب مستقل نشره المرحوم الفاروقي بعنوان: التوحيد وتجلياته في الفكر والحياة.[٧] واشتمل الكتاب على ثلاثة عشر فصلاً عرض فيها تجليات التوحيد في نظم الاعتقاد والمعرفة والقيم، واستوعب فيها المبادئ التي تشير إليها نصوص الإسلام ومقاصده، كما استوعب كذلك التجليات العملية في تاريخ الحضارة الإسلامية وإنجازات الشعوب الإسلامية.

ويلاحظ القارئ لهذا القسم من الكتاب أن المؤلفين يحيلان إلى عدد من البحوث التي نشرها كل منهما في مواقع أخرى حول تجليات التوحيد في الفكر والحياة، كما يكثران من الإحالة إلى الآيات القرآنية الكريمة، والتنبيه إلى الفوارق الأساسية بين الرؤية التوحيدية الإسلامية من جهة، ورؤى الفلسفات والأديان الشرقية والإغريقية والمصرية القديمة من جهة أخرى.

---

[7] Al-Faruqi, Ismail R. *Tawhid: Implication for Thought and Life*. Herndon: International Institute of Islamic Thought, 1402AH/1982AC.

ونكتفي في هذا المقام بهذه الإشارة، وللقارئ أن يقرأ المزيد في مراجعة متخصصة عن كتاب التوحيد يجدها في مكان آخر من هذا العدد من مجلة إسلامية المعرفة.

الأفكار وتطبيقاتها ومؤسساتها

القسم الثالث من الكتاب جاء بعنوان الشكل، وهو يأتي بعد تحليل جوهر الحضارة الإسلامية المتمثل في عقيدة التوحيد وتجلياتها في الفكر الإسلامي والحياة الإسلامية. وقد اختار المؤلفان هذا العنوان، لأنهما يريدان أن يقوما بتحليل ما يعطي العقيدة شكلها في نسق من الإفكار ومن التطبيقات المثلى والمؤسسات الاجتماعية، وبصورة أعطت الحضارة الإسلامية شكلها وشخصيتها، وأسهمت في ترسيخ تطورها وحضورها الفاعل في التاريخ. ويتكون هذا القسم من أربعة فصول هي:

القرآن الكريم: وفيه يستعرض المؤلفان حقائق الوحي وكيفياته وظاهرة النبوة وتاريخها، ولغة القرآن ونسيج الأفكار التي يتضمنها.

السنة النبوية: وفيه يتحدث المؤلفان عن النبي محمد ﷺ بشراً، وداعياً، ورب أسرة، وزعيماً سياسياً.

الأركان والمؤسسات: ويتضمن الحديث عن أركان الإسلام الخمسة، ومؤسسات الأسرة، والمسجد، والأخوة، ونظام الدولة، والشورى، والنظام العالمي، ومؤسسات التعليم، والقانون. ويجيء كل ذلك على اعتبار أن هذه الأركان والمؤسسات هي التي تعطي للحضارة الإسلامية شخصيتها ومظاهرها الشكلية التي تميزها.

الفنون: ورغم أن الحديث عن الفنون يأتي مفصلاً في عدد من الفصول في القسم الرابع من الكتاب وهو قسم التجليات، فإن المؤلفين يعرضان موضوع الفنون هنا في مستويات ذلك تتعرض للجانب الشكلي من الحضارة، المستوى الأول طريقة القرآن في تعريف التوحيد، وخصائص التعبير الجمالي عنه، والمستوى الثاني يتحدث عن القرآن الكريم بوصفه مثالاً فنيّاً، والمستوى الثالث يتحدث عن القرآن بوصفه مثالاً للتصوير الفني الدقيق.

إن الحديث عن القرآن الكريم هنا يبدأ بالحديث عن الصور الشكلية للوحي السابقة على القرآن الكريم، من الصحف المكتوبة؛ فحمورابي يؤكد أن الإله ناوله القانون المسمى

"شريعة حمورابي"، وأن الإله نفسه هو الحافظ لهذا القانون، والقانون نفسه يؤكد أنه نص مقدس لا يجوز التلاعب فيه. وثمة صحف مكتوبة أشار القرآن الكريم إليها "صحف إبراهيم وموسى"، يبدو أنها لم تحفظ، فلم تكشف الحفريات الأثرية عنها حتى الآن، لكن المؤرخين اتفقوا على أن إبراهيم عليه السلام كان في عصر عرفت فيه القراءة والكتابة، وكان معاصراً لحمورابي الذي كان قانونه مكتوباً. وتاريخ اليهود يتحدث عن أسفار مكتوبة، بقطع النظر عمن كتبها، وأتباع عيسى عليه السلام يؤمنون بأن العهد الجديد هو أربعة كتب كتبها أربعة رجال معروفون في أزمان محددة.

ثم يأتي الحديث عن القرآن الكريم حديثاً عن الشكل والبنية التي جاءت فيها السُّور والآيات، وعن الشكل الذي نزلت فيه وحفظت في الصدور وكتبت في السطور، وحديثاً عن طريقة تلقي النبي عليه الصلاة والسلام الوحي من جبريل، وطريقة تبليغ النبي مادة الوحي إلى من حوله من الصحابة وكتابته على الرقاع المختلفة، وحفظ مادة القرآن كاملاً على رقاعها في بيت السيدة عائشة رضي الله عنها، ثم نسخها في كتاب واحد في عهد عثمان، وتوزيع نسخ من الكتاب على الأقطار الإسلامية، ثم ما طرأ على كتابة النص القرآني من خط ونقط وشكل، وما جرى فيه من حفظ وتعليم وتعلم، بصورة تسوّغ القول بأن القرآن الكريم هو كلام الله نفسه في محتواه ولغته، حتى إن اللغة العربية تجمدت في النص القرآن، فكل مكونات اللغة اتخذ قالبه في القرآن، ومن القرآن يستقي دارس العربية النحو، ويستقي عالم اللغة تشكيلاته اللغوية، ويستقي الشاعر صيغه البلاغية إلخ، "فكلمات اللغة العربية وقاموسها وبنيتها ونظامها وأشكالها وقياساتها قد تجمدت كلها وغدت محصنة ضد التغير."[٨]

أما المحتوى الفكري في القرآن الكريم، ففي المركز منه محتوى العقيدة، التي تؤمن بالله الواحد الخالق المريد الحكيم... الذي أرسل هدايته إلى الناس عن طريقة الأنبياء والرسل وكان آخرهم محمداً ﷺ. ويحيط بهذا المركز من الأفكار القرآنية: مجموعة من المبادئ المنهجية ذات الأفق العالمي. ومن هذه المبادئ: العقلانية، والإنسانية، وقيمة الحياة، والانتماء إلى المجتمع البشري.

[٨] المرجع السابق، ص١٧١.

أما السنة النبوية فإن المؤلفين يستهلان الحديث عنها بالتأكيد على أنها ترجمة لحقائق الوحي إلى قوانين وقواعد للسلوك، و"هي عبء ثقيل جداً ألقاه التنزيل الإسلامي على كاهل الإنسان"، لكن الله سبحانه أعان "الإنسان في القيام بهذا التكليف عندما يسر له مثلاً وتوضيحاً وتفسيراً لمبادئ الوحي العامة، وهذا هو بالضبط هو مفهوم السنّة."[٩] ويوضح المؤلفان كيف حفظت سنة النبي ﷺ، ورويت، ودونت. وينقل تمييز العلماء بين السنّة التشريعية ذات الصفة المعيارية التي يلزم الاحتكام إليها بوصفها وفاءً لرسالته ونبوته، والسنة غير التشريعية التي صدرت عن النبي ﷺ بصفته البشرية، أباً، أو زوجاً، أو جاراً، أو تاجراً، أو زوجاً، أو قائداً، إلخ. ويتحدث عن أنواع السُّنة، ودرجات الحديث النبوي في الصحة والضعف.

لكن جوهر الإسلام لم يقتصر على الشكل الذي ورد في القرآن الكريم في صور أدب رفيع يستثير المشاعر، وليكون موضوعاً للفهم والتطبيق، أو على الشكل الذي وردت فيه أعمال الرسول ﷺ وأحكامه كما دونتها السنة، وكما تعلمتها وعملت بها أجيال المسلمين بعد ذلك، وإنما تجلّى هذا الجوهر في الأركان والمؤسسات الاجتماعية التي فرضها الدين وأقامتها الجماعة، بصورة تيسّر فهم الرسالة الخاتمة للدين، وأن أركانها ومؤسساتها هي وحي يوحي، وأنها شملت أغلب أنشطة الحياة الشخصية والأسرية والاجتماعية والعالمية، وأن الشريعة تقتضي حماية هذه الأركان والمؤسسات وتنظيم عملها، وضمان أن تهتم بالناس جميعاً؛ مسلمين وغير مسلمين، ما داموا يرغبون في العيش في ظل هذه الشريعة.

ويورد المؤلفان ضمن سياق الحديث عن الشكل في الحضارة الإسلامية أركان الإسلام الخمسة، بصفتها أنظمة مفروضة بصور مقننة وشكليات محددة ومواقيت مقدرة، تعود المسلم على إيقاع سليم في الحياة، على مستوى اليوم والأسبوع والشهر والسَّنة والعمر كله. أما محتوى هذه الأركان من الأفكار والمشاعر، فإنه يقوي النفس البشرية في عزمها على إرادة الخير وفعله، وملء العالم بالقيم النبيلة. ولا يقتصر حديث المؤلفين عن

[٩] المرجع السابق، ص١٧٩.

الأركان الخمسة في الإسلام بوصفها عبادات وشعائر، وإنما يتجاوز لذلك للحديث عنها بوصفها أنظمة ومؤسسات.

أما المؤسسات التي قنن لها الإسلام وعرفتها الحضارة الإسلامية بصورة متميزة، فقد تحدث المؤلفان عن الأسرة، والمسجد، والمدرسة، والوقف، والتجمع السكاني (الحارة)، والحسبة، والخلافة. وقد ميز المؤلفان بين المبادئ العامة والقيم العليا التي يجب أن تلتزم بها هذه المؤسسات من جهة، والتنظيم الهيكلي والأشكال الإدارية والوسائل العملية لتحقيق هذه المبادئ والقيم، وهي تختلف وتتعدد صورها، ويترك للجماعة المسلمة أن تطور في الأساليب والوسائل ما يكفل تحقيق المبادئ والقيم والمقاصد، على الصورة المثلى.

وقد جاء الفصل الأخير من هذا القسم الثالث من الكتاب بعنوان الفنون. ويوضح المؤلفان هنا "أن الثقافة الإسلامية هي ثقافة قرآنية"؛ لأن "القرآن الكريم يقدم المبادئ الأساس لثقافة وحضارة بأكملها. فمن دون ذلك الوحي ما كان للثقافة أن تولد، ومن دونه ما كان يمكن أن توجد ديانة إسلامية ولا دولة أو فلسفة إسلامية ولا قانون أو مجتمع إسلامي، ولا نظام سياسي أو اقتصادي إسلامي. ومثلما يصح بالتأكيد رؤية هذه المظاهر من الثقافة الإسلامية على أنها قرآنية من حيث الأساس والدافع، والتناول والهدف، فإن فنون الحضارة الإسلامية يجب أن ينظر إليها كذلك على أنها تعبيرات جمالية نابعة من هذا المصدر تتبع المسار نفسه. أجل إن الفنون الإسلامية فنون قرآنية حقاً."[١٠]

ويفسر المؤلفان بعد ذلك بقدر من التفصيل كيف يمكن النظر إلى الفنون الإسلامية على أنها تعبيرات قرآنية في اللون والخط والحركة والشكل والصوت، من خلال تحديد ثلاثة مستويات يقوم عليها هذا التفسير:

المستوى الأول: القرآن يعرّف التوحيد ويحدد خصائص التعبير الجمالي عنه من خلال عناصر محددة منها: التجريد، وبنية الوحدات، والتواليف المتلاحقة، والتكرار، والحركية، والتداخل.

[١٠] المرجع السابق، ص٢٤٣.

المستوى الثاني: القرآن هو مثال فني؛ فهو وإن كان تنزيلاً إلهياً بشكله ومحتواه وكلماته وأفكاره، فإنه في الآن ذاته نص أدبي لا متناهي المثال، وغاية في الإعجاز والتأثير الجمالي في ألفاظه ووحداته وأقسامه وموسيقاه وإيقاعاته.

المستوى الثالث: القرآن هو مثال للتصوير الفني الدقيق؛ لأنه زوّد الحضارة الإسلامية بمذهب فكري تعبر عن فنون هذه الحضارة، وقدّم أول وأهم تمثلاث من المحتوى والشكل في الفن، وقدم فضلاً عن ذلك أهم مادة لرسم المنمنمات والخطوط في الفنون الإسلامية، فكانت الآيات القرآنية مادة للخطوط في تزيين المنسوجات والملابس والأواني والصناديق والأثاث والمباني، في عصور التاريخ الإسلامي وفي أرجاء العالم الإسلامي كافة، فعلى مدى الزمان والمكان، "كانت الآيات القرآنية بالخطوط العربية تشكل أجلّ مكونات الفنون، ولا يوجد تراث جمالي في العالم كان فيه لفن الخط أو لكتاب واحد من مثل هذا الدور الحاسم."[١١] ويستدرك المؤلفان في هذا المقام على الكتاب الغربيين وعلى الذين يسلكون منهجهم من المسلمين، حين يجعلون للحروف والأرقام والأجسام المستعملة في الفنون الإسلامية معزى باطنياً ودلالة رمزية، فيؤكد الفاروقيان أن الفن الإسلامي فن يقوم على مبدأ فكري هو التوحيد، الذي لا يمكن التعبير عنه جمالياً بعلاقات فعلية أو متخيلة بين الطبيعة والله سبحانه، فكل شعائر الإسلام شعائر وظيفية لا رمزية.

وأخيراً يشير المؤلفان إلى الثغرة القائمة في ميدان الجماليات الإسلامية وتاريخ الفن في العالم الإسلامي؛ إذ يسيطر على هذا الميدان باحثون من خارج العالم الإسلامي ثقافة ودينا، أو مسلمون تلقوا تعليمهم في الغرب، وتأثروا بسوء تفسيرات الغربيين للحضارة والفنون الإسلامية. كما يلاحظان في السياق نفسه إهمال الجامعات في العالم الإسلامي وتقصيرها في رعاية الدراسات الجمالية وتاريخ الفنون، مما جعل المهتمن من المسلمين يضطرون إلى الدارسة في الجامعات الغربية ويقعون فريسه لتوجهاتها وتفسيراتها.

[١١] المرجع السابق، ص٢٥٩.

تجليات الحضارة الإسلامية في الفِعْل والفِكْر والتَّعبير

هذا هو موضوع القسم الرابع من الكتاب، وهو أكبر الأقسام ويتكون من خمسة عشر فصلاً، وتوزعت فيها تجليات الحضارة الإسلامية في ثلاثة مجالات هي: الفعل والفكر والتعبير. ويقصد بمجال الفعل أحداث نزول الرسالة ومقاومة الملأ للدعوة وما لقيه الرسول ﷺ والمؤمنون الأوائل معه من أذى، ومع ذلك كان إيمان الناس بالإسلام يتزايد قبل الهجرة إلى المدينة وبعدها، وهذا ما ورد في الفصل التاسع، كما يتضمن المجال الحديث عن تشكل الدولة الإسلامية وحركة الفتوحات الإسلامية في بلاد العرب ثم فيما حولها شرقاً وغرباً، ودخول كثير من الشعوب دون أن تصلها حركة الفتوحات، لا سيما في أعماق أفريقيا وجنوب شرق آسيا، وهو ما ورد في الفصل العاشر.

أما مجال الفكر فقد عرضت موضوعاته في الفصول الثمانية التالية. وتضمنت الحديث عن العلوم بأقسامها وفروعها المختلفة، ويؤكد المؤلفان أن مفهوم العلم في الإسلام مفهوم متميز عنه عند الطوائف والفلسفات الأخرى، فهو إدراك عقلاني تجريبي حدسي لكل ميدان من ميادين الواقع، ومعرفة نقدية للإنسان والتاريخ والعالم المادي، ويخضع للاختبار والتطبيق ويؤدي إلى نتائج عقود إلى الفضيلة، فالمسلم لا يتلقى المعرفة عن مصدر مجهول يتصف بالسِّرية، أو عن طريق كشف إشراقي ذاتي تأملي، ولا يبحث عن معرفة مستحيلة، ولا يسلك منهجاً مغلوطاً، ولا يسرق المعرفة من السماء. ويبدأ القسم بفصل عن العلوم المنهجية، منوهاً بما يسمى (العلوم الشرعية)، التي تشتمل على علوم القرآن والحديث واللغة والفقه. ويتخصص هذا الفصل بالحديث التفصيلي عن علوم اللغة التي تشتمل على الأدب والنحو والصرف، وعلم المعاجم، وأهمية هذه العلوم المنهجية بوصفها مفاتيح لعلوم الشريعة الأخرى.

يلي ذلك فصلٌ كاملٌ لكلٍ من علوم القرآن، وعلوم الحديث، وعلم الفقه ويسميه القانون، وعلم الكلام، والتصوف، والفلسفة، ونظام الطبيعة وما يتضمنه من علوم الكيمياء والفيزياء والجغرافيا والفلك والطب والرياضيات. ولكل علم من هذه العلوم

نشأته وتطوره، وأصوله وفروعه، وطرقه ومناهجه، وأعلامه ومدوناته. وقد جال المؤلفان في تفاصيل المسائل في كل علم منها.

ويخصص المؤلفان الفصول الخمسة الأخيرة للطرق المختلفة من التعبير في الحضارة الإسلامية، بدءاً من التعبير بالفنون الأدبية التي امتازت بالرفعة في الشكل والمحتوى والأثر، وكان للقرآن الكريم أثره البالغ في تطور فنون الأدب نثراً وشعراً، مثلما كان له أثره في الثقافة والآداب التي طورتها الشعوب والأقوام التي عاشت في المجتمع الإسلامى بما في ذلك غير المسلمين من اليهود والنصارى. وامتد ذلك الأثر ليتجاوز اللغة العربية إلى لغات الشعوب الإسلامية الأخرى.

أما التعبير بفنون الخط فقد احتل موضوعه الفصل العشرين، ويعود المؤلفان إلى التأكيد على أن من تأثير القرآن الكريم على الحضارة الإسلامية أن جعل من الخط أهم شكل فني فيها على امتداد الزمان والمكان. وفي هذا السياق يتحدث المؤلفان عن تطور الكتابة العربية، وتطور طرق استنساخ القرآن الكريم، وظهور أنواع الخطوط العربية: الكوفي والنسخي والديواني والتعليق والتفرعات المتعددة لكل منها. ثم استخدام هذه الخطوط في فنون الزخرفة للمباني والأدوات والنسيج وغيرها.

وتخصص الفصل الحادي والعشرون من الكتاب بالحديث عن الزخرفة في الفنون الإسلامية، مع التأكيد على الوظائف الفريدة للزخرفة في هذه الفنون. ذلك أن الزخرفة في الفن الإسلامي ليست كما يحلو للدارسين لها من الغربيين وتلاميذهم المسلمين أن يفسروها، بأنها شيء يضاف بشكل سطحي إلى العمل الفني بعد اكتماله؛ لتجميله أو وسيلة إشباع شهوات شعب يبحث عن اللذة، أو أنها وسيلة لملء فضاء وتجنب الفراغ، فعلى العكس من ذلك نجد التصاميم الزخرفية في كل منطقة من مناطق العالم الإسلامي، وفي كل عصر من عصور التاريخ الإسلامي تؤدي أربع وظائف هي:

- التذكير بالتوحيد؛ من خلال تقديمها أنساقاً لا متناهية ترفع الشى من مجال الانتفاع الصرف، وتجعل منه تعبيراً عن النظام الفكري في الإسلام.

- تغيير مظهر المواد؛ بالطلاء أو التلبيس، وبإخفاء الصفات الكامنة في المواد، وعدم الاكتراث بغنى المادة؛ لأن العمل الفني الإسلامي يستمد خصوصيته وامتيازه من أثر تلك المواد لا من قيمتها الداخلية.

- تغيير مظهر البني لتحويل الاهتمام بعيداً عن العناصر والخصائص المبتذلة، وتوجيهه إلى منزلة أسمى من التعبير والمعنى.

- التجميل، وهي وظيفة تشترك فيها الزخرفة الإسلامية مع التقاليد الفنية في الحضارات الأخرى، لكن تناظر الأنساق وألوانها المفرحة، وأشكالها الرشيقة المتنوعة كانت دائماً موضع إعجاب الناظرين إليها.

ثم يتوسع الفصل كثيراً في الحديث عن التنوع في الفنون الزخرفية الإسلامية، وأساليبها وموادها عبر مناطق العالم الإسلامي وصور التأثر والتأثير البيئات المختلفة، وتحليل الوحدات الأساسية في الأشكال الزخرفية الهندسية والنباتية والحيوانية والمعمارية وغيرها.

ويأتي بعد فصل الزخرفة فصل آخر عمّا يسميه المؤلفان فنون المكان. ويرفض المؤلفان تحديد دلالة فنون المكان بأنها تقصر على فنون العمارة، أو أنها تشمل كل الفنون المنظورة. وبدلاً من ذلك يعرض المؤلفان لأربعة أصناف من فنون المكان: الأول هو الذي يعرض الأبعاد الأفقية والرأسية في المكان مع الاستفادة من الطبيعة التشكيلية في الحجم، كما في النوافير والأعمدة التذكارية والأبراج والأقواس والجسور وقنوات المياه، ويكون النظر إليها من الخارج. أما الصنف الثاني من فنون المكان في تلك الإبداعات الفنية التي تضيف مكاناً داخلياً وكنفاً إلى الأبعاد الأفقية والرأسية، وتعطي انطباعاً بالعمق والحجم والكتلة، وهي ما يطلق عليه فنون العمارة. أما الصنف الثالث فيسميه المؤلفان هندسة المناظر الطبيعية الذي يشتمل على الإبداعات الجمالية في أعمال البستنة وهندسة الرّي والمياه. وثمة صنف رابع يختص بالعلاقة بين البناء وما يجاوره من أبنية، والمساحات المكشوفة من حولها، والمجمع السكني أو القرية أو الحي من المدينة، وهو ما يمكن تسميته بفنون تخطيط المدينة والريف. ويتوسع المؤلفان في تفاصيل وخصائص هذه الأصناف من فنون المكان، والتمثيل عليها وتحليل تكويناتها الفنية.

وآخر فصول الكتاب هو فصل عن التعبير بالصوت أو هندسة الصوت في الفنون الإسلامية. وهو أكبر فصول الكتاب؛ إذ يبلغ عدد صفحاته ٥٤ صفحة، وهو ضعف متوسط عدد صفحات فصول الكتاب. ويتضح من المراجع التي يحيل إليها الفصل كثرة الإحالات إلى كتابات الدكتوره لوس لمياء الفاروقي وبحوثها المنشورة في موضوع الفنون الصوتية الإسلامية، وهو موضوع اختصاصها العلمي، وخبرتها البحثية والتدريسية. لكن ذلك لا يعنى أن هذا الفصل هو إسهامها الوحيد في الكتاب؛ إذ نستطيع تلمُّس العمل المشترك للمؤلفين في جمعهما لعناصر المادة وتوثيقها وإغنائها بالصور والرسومات والمخططات التوضيحية، ويلاحظ أن كثيراً من الصور قد التقطتها الدكتوره لوس الفاروقي بنفسها، في أماكن كثيرة تشمل مصر، وتونس، والمغرب، والكويت، ولبنان، ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، وعُمان، والباكستان، وأفغانستان، وتركيا، وإسبانيا، وإيران، والهند، وماليزيا، وبروناي، وأوزباكستان، وغيرها.

وكما هو الحال في الفصول السابقة من الكتاب، تعرّض هذا الفصل لقضية الأحكام الشرعية التي تضبط هندسة الصوت، وأجناس الفنون الصوتية، وسياقات الأداء الصوتي، والمؤدين في الأجناس الصوتية المختلفة، ودور الجمهور المتلقي. وشملت الفنون الصوتية أشكال الموسيقى وأدواتها وأسماء الموسيقيين، والمغنين الذين اشتهروا في العالم الإسلامي، ونالت فنون تلاوة القرآن والأذان والنشيد والحداء اهتماماً مناسباً. ودخل الفصل في عدد من التفاصيل التي تهم المتخصصين أكثر من غيرهم، مثل الكتابة الموسيقية والمقام، والخصائص الأساسية لفنون الصوت.

وقد يكون هذا الفصل على وجه التحديد فريداً في موضوعه، وطريقة عرضه، لا سيما عندما تأتي في سياق كتاب مرجعي مثل "أطلس الحضارة الإسلامية"، لتعطي للموضوع شيئاً من حقه، مما لا نجده في معظم الكتب المرجعية الأخرى، ولا حتى في الكتب المتخصصة.

وقد لخص الفصل إحدى النتائج الأساسية بخصوص هندسة الصوت بالتأكيد على أن "الفنون الصوتية في الثقافة الإسلامية لم تكن محض تجميع لأساليب إقليمية مستعارة

من شعوب شتى وضعت بجوار بعضها لتؤلف موسيقى الشعوب الإسلامية." بل إنها تجليات لعلاقات متكاملة مع الدين الإسلامي والتوحيد والقرآن وتلاوته المرتلة... فمع مجيء الإسلام اجتمعت في بيئته "حوافز النظام الفكري الجديد وما بعثته من حماسة الالتزام،" مما نتج عنه "ازدهار في فنون الصوت ما تزال آثاره واضحة في كل أرجاء العالم الإسلامي المعاصر، وقد كان دين الإسلام عاملاً حاسماً في هذا الازدهار، فالتوحيد وصوره في القرآن الكريم لم يقتصر على التأثير في العديد من الجوانب الاجتماعية من الموقف والاستعمال الذي يتعلق بالفنون الصوتية، بل صاغ طبقات الصوت ومددها وترابطاتها لكي تجسد الخصائص الست الأساس في الفنون الإسلامية."[١٢] وهذه الخصائص هي: التجريد، وبنية المقام، والترابطات المتتابعة، والتكرار، والحركية والتعقيد. وهي الخصائص نفسها التي وجدناها في سائر تجليات الحضارة الإسلامية.

خاتمة:

لعل مما يفيد أن نختم به الحديث عن هذا الكتاب إشارة إلى شيء مما كتبته دار مكميلان في لندن ونيويورك التي نشرت الطبعة الإنجليزية من الكتاب على غلافه، فذكرت أن هذا الأطلس هو كتاب فذّ؛ إذ يقدّم رؤية العالم الإسلامية بما تحتويه من عقائد ومؤسسات، ويكشف عن الجذور التي امتد الإسلام فيها إلى الحضارات الأخرى. وفضلاً عن أن الأطلس هو مقدمة شاملة عن التجربة الإسلامية في التاريخ والعالم المعاصر، فإنه تفسير مرجعي عميق للإسلام، موجّه إلى أتباع الأديان جميعاً، بصورة يصدق عليها القول: الإسلام يتحدث عن نفسه. ولا يقتصر الكتاب على كونه تأريخاً للأحداث التي أسهم فيها الإسلام في مساحة واحدة من الأرض، فإنه عرض شيّق لما يصرّ المؤلفان على تسميته "جوهر الحضارة الإسلامية" وتمثلات هذه الجوهر في تراث المسلمين في الفنون والعلوم والقانون السياسة والفلسفة. إن قيمة الكتاب تتمثل فيما يحتويه من تفاصيل عن موضوعاته، ووضوح في أسلوبه، وتكامل بين ما كتب في الموضوعات في القديم والحديث، وعرض للإسلام من الداخل باتجاه الخارج، وتصحيح لصورة الإسلام وحضارته التي بالغ الغربيون في تشويهها.

[١٢] المرجع السابق، ص٦٦٣.